انتقاء الالفاظ

دخلت مرّةً على جماعة من المتحكّكين بالادب فرأيتهم يهتزّون طرباً ويكبرون استغرابًا وعجبًا فما استقرّ بي المجلس حتى عرفت الذي استفزّ عواطفهم واستخفّ حواسّهم فقام بها وقعد وهو انهم كانوا يتلهّن قصيدة الاخطل في وصف حمار الوحش ويعجبون لما فيها من البلاغة حاسبين معرفتها معترك الفصاحة وجلّ ما يُراد من حسن البيان . واذ استطلعتهم جهة الحسن فيها لم يكن لديهم ما يقولون الاّ ان بلاغتها قائمة بما فيها من الالفاظ المُغلقة حتى ان علماء هذا الزمان لا يستطيعون فهمها بدون الاستعانة بالمعاجم الضخمة . فقلت لهم رويدكم يا قوم فهي ليست على ما تزعمون من البلاغة ونظمُ مثلها ليس بالعمل الشاقّ وان كانت البلاغة تقوم عندكم بالغرابة فاذا شئتم نظمتُ لكم الآن على البحر والقافية الفاظًا لا يفهمها احدٌ منكم فقالوا هات ان كنت من فرسان هذا الميدان لنلقي اليك مقاليد الكلام وحسن البيان فقلت على البديهة :

سحّالــ أغربةٍ رفّت سواجلهُ وداعلتهُ كروفُ الدهرِ فاندعلا
يحبو على خُصُفٍ والبَتْقُ غايتهُ كانهُ من بُلُوم المستفار شلا

فصاحوا بي مهلاً لنكتب هذه الآيات الباهرة كي لا تضيع فائدتها واخرج بعضهم قلمًا وقرطاسًا فانكبّوا على التدوين واندفعت في الاملاء الى ان امليتُ عليهم اكثر من عشرين بيتًا من هذا النوع . وبعد ان اوسعوني اطراءً واعجابًا وآنستُ منهم الدعة والسكون قلت لهم اتحسبون ما اخذتم عني الآن بليغًا ؟ قالوا كيف لا نحسبهُ كذلك ونحن لم نفهم منهُ شيئًا . قلت ولا انا فهمت منهُ شيئًا قالوا وكيف ذلك قلت لانهُ ليس فيهِ شيء يفهم وما هو الاّ الفاظ مرتجلة لا معنى لها ومثلي معكم مثل ذلك الطبيب الذي جاءهُ رجلٌ فقال : اصلحك الله اكلت من لحوم هذه الجوازل وطسيت طسّةً فاصابني وجع بين الوابلة وداية العنق فلم يزل ينمو ويربو حتى خالط الحابل والنرامسيف فهل عندك دواء . قال الطبيب نعم خذ خربقًا وسلفقًا وشربقًا فزهزقهُ واغسلهُ بماء وربوب واشربهُ . فقال المريض لم افهمك قال الطبيب ما افهمتك الاّ كما افهمتني . وانتم لم تفهموا من ابيات الاخطل اكثر مما فهمتم من اياتي فلا ترجعوا عن مدح ما كتبتم لاجل امر معنويّ لا يهمكم قالوا قد فهمنا ما تريد وانك لا تنوي الاّ تنبيهنا الى معاني الكلام دون الفاظهِ قلت نعم انني اريد بعض ما ذكرتم لان اللغة ليست الاّ وسطًا شفّافًا بين الافكار تمرّ فيها المعاني وتنقل بواسطتها من المتكلم الى السامع كما تمرّ اشعّة النور في الزجاج وتصل الى العين وبنقاوة الزجاج مما يوقف الاشعة ويحول دون نفوذها تزيد صور الاشياح

وضوحاً وجلاء . فاللغة نتيجة الفكر والغرض منها التفاهم ونقل ما يدور في وجدان زيد الى وجدان عمرو هذا هو المقصد الاول من وضعها ولاجل هذه الغاية تكيَّفت في الانسان اعضاء الصوت واجزاء الفم تكيُّفاً تدريجيا الى ان بلغت مبلغاً تستطيع معهُ الافصاح عما يتولد في العقل من المعاني باصواتٍ ومقاطع اصطلح عليها البشر لتدلّ على ما يريدون من الصور . فالنطق في الانسان نشأ مع عقله وكلما زاد الدماغ اتساعاً زاد اللسان بياناً . ومثلكم بالالفاظ التي لا تفهمون معناها مثل من ينظر الى الاشباح من وراء برقع كثيف لا يرى الاَّ ذلك البرقع وبهذا لا يدرك غرض التفاهم المطلوب من اللغة والذي هو اوَّل اغراضها . فقال احدهم : إذَنْ لا شيءَ من الاهمية للالفاظ في حسن البيان قلت ان غاية اللغة غاية معنويَّة لا غاية لفظيَّة وايّ لفظ اتفق المتفاهمان على دلالتهِ يصير حريًّا بتلك الدلالة بينهما وهي تكون مصاحبة لهُ أيّان يرز . على انهُ مهما كانت المعاني اصليَّة في غاية اللغة ومهما كان للصناعة المعنويَّة في الانشاء من الاهمية الكبرى فللألفاظ شأن ليس بالقليل في تحسين تلك المعاني وتحبيب صورها للعاطفة العقلية وسبب ذلك على ما ارى هو ان الاوضاع اللفظية تُحد بالمعاني التي وضعت لاجلها وتصبح من جملة خواصها وصفاتها والصور العقلية تجمل بجمال صفاتها وتقبح بقبحها . فكما ان السماء جميلة بنجومها واتساعها ولونها الازرق كذلك هي جميلة باسمها الرقيق اللين الذي ينطق بهِ الفم وتسمعهُ الاذن وتتلقاهُ العقل بدون ادنى تبرّم او استكراه وعند ما تمرُّ صورتها في خاطرنا تمرُّ مصحوبة باسمها فلو كان ذلك الاسم كريهاً على السمع ونابياً عن الطبع لحطَّ من قدر جمالها ونقص من بهائها وكمالها . لذلك يتحتم على الكاتب والشاعر والخطيب ان يختار لمعانيهِ احبَّ الالفاظ الى الاذن واقربها الى الفهم

قال آخر : اذا كان الامر كذلك وكلمة واحدة تفي بالمعنى الواحد فلماذا عُني واضعو اللغة بوضع المترادفات الكثيرة للدلالة على المعنى الواحدة

قلت : ان اولئك الواضعين كانوا متفرقي الكلمة ومشتتي المساكن فلم يتيسَّر لهم ان يؤلفوا وهم في حال الهمجيَّة والبداوة مجمعاً لغوياً يتكفل اعضاؤهُ بوضع الفاظٍ مرتجلة او كلماتٍ مشتقة للمعاني التي تحدث بين القبائل فصارت كل فصيلة من فصائلهم تضيف الى الاوضاع الاساسية اوضاعاً جديدة تمسُّ الحاجة اليها وتجريها على ألسنة افرادها بينما غيرها من الفصائل المجاورة كانت تضع لتلك المعاني نفسها الفاظاً غير تلك وهذا احد الاسباب التي اوجدت المترادفات في كلِّ لغةٍ من لغات العالم . وقد يمكن ان القبيلة الواحدة وضعت للمعنى الواحد اكثر من لفظةٍ او ان تلك الالفاظ كان بينها يوم وضعها فروق دقيقة نسيها الخلف حتى اصبحت اليوم بمعنى واحد .

نعم ان وجود هذه المترادفات لمّا يُربك الكاتب ويضعهُ موضع الحيرة في ايها يختار لجملته الاّ ان صاحب الذوق السليم يميّز بين مليحها وقبيحها ويدرك بحسن اختباره اي المترادفات اليق لعبارته واقوم بحاجته مع مراعاة المقام من جهة الانفعال والسكينة. مثال ذلك السيف والصارم فانهما بمعنى واحد الاّ ان السيف يفيد معنى الآلة في جميع حالاتها مجمدًا ومسلولاً والصارم باشتقاقه من الصرم يفيد معنى القطع فلا يليق استعمالهُ الاّ اذا اريد الاشارة الى فعله فلا يقال بدل تقلّد سيفهُ وخرج مثلاً تقلّد صارمهُ وخرج بل يقال "زرّجتَ جيشهم بالصارم الذكر". وينظر ايضًا الى عدد الحروف ليختار اكثرها حروفًا في مقامات الانفعال والشدّة كالجحفل الجرار بدل الجيش في قوله

خلّوا لنا ماء الفرات الجاري او فاثبتوا لجحفل جرّار

اذ الموقف يستدعي التهويل والتعظيم وكلما امتدّ الصوت وتخنت مخارج الحروف كان التعبير اوفى بالغرض واكفل للغاية . والجيش احسن من الجحفل في قولنا لمّ بقايا الجيش وتساندهم . ففي الكلام المحجوب بالسكينة والهدوّ تختار الالفاظ القصيرة والرقيقة على الطويلة الجزلة . ومثل ذلك قول المتنبي

اعفّر الليث الهزبر بسوطه لمن اذّخرت الصارم المصقولا

فبما ان المقام يقتضي الفخامة والمبالغة استعمل معفّرًا بدل جادل والليث الهزبر بدل الليث وحدها واذّخر بدل ذخر والصارم المصقول بدل السيف. كذلك اذا كان لاحدى المترادفات معانٍ كثيرة لا يجوز انتقاؤها للعبارة تخلصًا من الالتباس فلا يقبل استعمال الخال بدل البرق الاّ اذا قامت على هذه الدلالة قرينة قاطعة كأن يقال اومض الخال . ومن ذلك ترى ان المترادفات لم توضع بدون حاجة اليها ولا يمكن الاستغناء عنها في اللغة انما يجب على الكاتب ان يفهم معانيها فهمًا دقيقًا ويراعي ما ينبهُ لفظ كلٍّ منها من العواطف فلا يجيء في كلامهِ الاّ بما كان راسخًا في محلهِ آتيًا على آخر الدلالة

قال آخر . قرأت في كتاب طبع حديثًا ان افصح الالفاظ ما كان كثير الاستعمال ويفهمهُ الخاصة والعامة وان فصاحة اللفظ تقاس بعدد الذين يفهمونهُ . فماذا تقول في ذلك

قلت : لا انكر ان اللفظ المفهوم هو افصح من المجهول واجدر منهُ بالاستعمال الاّ انني اكرهُ ان يجرّنا هذا القول الى ترجيح المبتذل فقد نبّه اكثر علماء البيان على ان اللفظ الذي مضغتهُ افواهُ العامة وكثر دورانهُ على ألسنتهم في المقامات الدنيئة يختار تركهُ والتجانف عنهُ توفّرًا على البلاغة اذ هو تجهُ النفوس وتلفظهُ العقول لانهُ قد اذالتهُ كثرة الاستعمال واهانهُ الابتذال .

قرأت مرة ان احد ادباء الانكليز عرض مقالة على كاتب بليغ وطلب منهُ انتقادها فقال الكاتب كلها جميلة بليغة الاَّ ان عبارة Buchered to make a Roman holiday لا استحسنها قال الاديب "اعجب من عدم استحسانك اياها على ما هي عليهِ من البلاغة والشهرة والشيوع" فقال الكاتب "نعم هي بليغة ولكن بعد ان تسمع ثمانية عشر الف مرَّة تصير مملولة" كذلك نقول نحن عن العبارات التي اولع بها الكتَّاب مثل كالشمس في رابعة النهار لا يختلف فيهِ اثنان . ان احببت فريدة من غير رام . الصفع عن شيم الكرام . زاد الطين بلة . تنزَّقوا ايدي سبا . حدِّث ولا حرج . ضرب الجهل اطنابهُ وكثير غيرها نعم ان هذه العبارات حسنة الوضع وافية بالغرض غير انها صارت مسؤومة مملولة ولنا في غيرها غنية عنها. ولا يوجد في اللغة كلام يصحُّ فيهِ قول الشاعر

مشرقٌ في جوانب السمع لا يخـــ ـلقُهُ عودهُ على المستعيـد

او قول الآخر

وهو المشيَّعُ بالمسامع ان مشى وهو المضاعف حسنهُ إن كُرِّرا

اذ هو مبالغة في وصف الكلام الممدوح تدعو اليهِ الصناعة ولا يخرج عن حد قول الآخر

أَعِدْ ذكرَ نعمانٍ لنا انَّ ذكرهُ هو المسك ما كرَّرتهُ يتضوَّعُ

بيد ان اعصاب الشمّ اذا طال عليها استنشاق المسك تألفهُ ولا تعود تشعر لهُ برائحة كما اذا وضعت وردةً على خيشومك واطلت شمَّها . وامر المسك ينطبق على الالفاظ والعبارات فكلُّ قول يكثر تكرارهُ على السمع يألفهُ العقل ولا يعود يحس بهِ بالمعنى الذي وضع اللفظ لاجلهِ. نحن نكتب لآحاد الناس "جناب الاجل الامجد" ولا نشعر معها بشيء من الجلال والمجد امَّا لو ترجمناها الى الانكليزية وقلنا The most majestic and the most glorious او الى الافرنسيَّة وقلنا Le plus majestueux et le plus glorieux لاهتزت عند لفظها اعصابنا وارتعدت فرائصنا وشعرنا اننا نخاطب الخالق جلَّ شأنهُ . وهذا نشاهدهُ ونشعر بهِ عند ما نسمع واعظاً فصيحاً يخطب بلغة اجنبية نفهمها فاننا ننفعل من كلامهِ ونشعر بتأثير جديد واذا نقلنا اقوالهُ الى لغتنا لا نجد فيها اكثر من كلمات مبتذلة ومعانٍ كثيرًا ما طُرقت فلا تمرُّ منَّا الاَّ على قلوب جامدة ونفوس باردة . وهذا الفرق ما نشأ الاَّ من الابتذال وكثرة الاستعمال وعندنا ان الجليل اعظم من الاجل والماجد اكبر من الامجد وهو مخالف للوضع ولذلك لا محل بعدُ للريب ان الالفاظ التي لا كتها افواه العامة في المواضع الدنيئة يختار اجتنابها كما يختار اجتناب الغريب النافر

فقال حسبك عن الابتذال واذكر لنا شيئًا عن الغريب النافر فهو الذي اوصلنا الى ما نحن فيهِ

قلت : ما عيبان اختار إفرادهما رغبةً بمعايير الكلام عن الامتزاج . فالغريب هو ما ندر ورودهُ في ادبيات السلف وقل استعمالهُ حتى يكاد المطالع لا يعثر عليهِ الاَّ في المعاجم الكبيرة والالفاظ الغريبة قد تكون رقيقة او جزلة تسمعها الاذن وتُسيغها بدون تكلُّف وخالية من كل ردَّةٍ يكرهها الذوق الاَّ ان ذلك لا يُغني عنها شيئًا اذا لم تكن قد وردت مرَّات كثيرة في مقالات البلغاء . ولا يُلام احدٌ اذا جهل دلالة مثلها لانهُ لا يكلَّف محترفو حرفة الادب ان يدرسوا المعاني الاَّ اذا عثروا على الفاظها في تضاعيف كتب الادب واردةً في عباراتٍ يلذُّ بها القارئُ . والالفاظ الغريبة والقليلة الاستعمال كانت في الجاهلية والاسلام كما هي اليوم ولم يكن يستعملها الاَّ المتقعرون المتخلقون ادلاء بانهم يعرفون ما يجهلهُ غيرهم او لغرضٍ آخر تبعث اليهِ الاحوال . هذه الابيات التي اشتهرت ببلاغتها وفصاحة الفاظها لم يكن فيها شيء يذكر من مثل هاتيك المواد الغريبة عندنا منها شعر السموأل واكثر ابيات الحماسة المأثورة في الحافظات وشعر زهير بن ابي سلمى وعمر بن كلثوم وعنترة العبسي وفي المخضرمين كلام الصحابة كخطب الخلفاء الراشدين ومن عاصرهم ممن تكلم بلغة قريش وهم افصح العرب . يتشاهم لنا امام البلغاء وسيّد الخطباء الامام علي بن ابي طالب الذي ادرك الجاهلية وعرف الداء على السنة اهلها وميز بين الحسن والقبيح منها فلم يورد من الغريب الاَّ القليل وكلُّ شعرهِ مثل قولهِ

الناس من جهة التمثال اكفاء ابوهمُ آدمٌ والامُّ حوَّاء
فان يكن لهمُ في اصلهم شرفٌ يفاخرون بهِ فالطين والماء
ما الفضل الاَّ لاهل العلم انهمُ على الهدى لمن استهدى ادلاَّء
وقدر لنفسك علمًا كي تعيشَ بهِ فالناس موتى واهل العلم احياء

وجلُّ نثرهِ على هذا الحدّ : " لا تطوّلنَّ احتجابك عن رعيتك فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالامور والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونهُ فيصغر عندهم الكبير و يعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل " وفي التهديد كقولهِ لمعاوية " وذكرت انهُ ليس لي ولاصحابي الاَّ السيف فلقد اضحكت بعد استعبار متى الفيت بني عبد المطلب عن الاعداء ناكلين وبالسيوف مخوَّفين فسيطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد وانا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان شديد زحامهم ساطع قتامهم متسربلين سربال الموت احبُّ اللقاء اليهم لقاء ربهم قد صحبتهم ذريَّةٌ بدريَّة وسيوفٌ هاشمية عرفت مواقع نصالها وما هي من الظالمين ببعيد " ولا يحتجُّ بما اوردهُ

من بعض الالفاظ الغريبة في كلامهِ فان هذا منهُ ما وضعهُ غيرهُ ونسبهُ اليهِ ومنهُ ما دفعتهُ اليهِ كثرة المادَّة وغزارة المعرفة في الفاظ العرب وهو قليل جدًّا في جنب ما لهُ من الكلام السلس واللفظ الرقيق الجزل . وليس الامر كما يظنُّ لاوَّل نظرةٍ ان الغريب اليوم كان مألوفًا عندهم لانهُ لو كان كذلك لاستعملهُ كلُّ شعرائهم وخطبائهم . وعلى هذا المنوال نسج الكتاب البلغاء مثل ابن المقفع وعبد الحميد والصاحب وابن العميد والصابي وابي بكر الخوارزمي وبديع الزمان وابن الاثير وابن خلدون والمسعودي وغيرهم ولا عبرة بما جاء في بعض الكتب اللغويَّة كمقامات الحريري من الالفاظ الغريبة التي لا نألفها اليوم لغرض صاحبها كان ان يجمع كتابًا يقيِّد فيهِ شوارد اللغة فالكتب التي من هذا النوع هي معاجم تجمع فيها الكلمات لا كتب ادبية يستن بسنتها ويجرى على خطتها . وان ورود اللفظة مرَّتين او ثلثًا في كلام اساطين البلاغة لا يكفي لتجويز استعمالها وهذا ممَّا يجب الانتباه اليهِ عند الانشاء فلا يُورَد الاَّ ما كان بين المتأدبين .

وقع لي مرَّةً ان رايت في خطب الامام عليٍّ قولهُ يهرُّون بعضهم بمعنى يكرهون فعلقت في ذهني واستعملتها اذ عرض لها موقع في مقالةٍ قدمتها للمقتطف فآخذني بها صاحبهُ العلامة الفاضل وكتب اليَّ يقول انهُ لامزيَّة لهذه اللفظة على مرادفتها كره الاَّ بان هرَّ مجهولة متروكة وكره مفهومة شائعةٌ وانهُ يستحسن الاعتياض عن تلك بهذه حرصًا على راحة القراء وكفايتهم مؤونة الحلقة في المعاجم . هذا ما يغرّر بالكتاب اليوم وينشطهم على اقحام الغريب في عباراتهم حاسبين ان كل ما يستعملهُ بلغاء السلف لا يكون غريبًا وان كان فهو ثقيلٌ محمودٌ

اما الثاني فاريد بهِ ما تكرههُ الاذن وينبرم بهِ اللسان سواء فهم معناهُ او لم يفهم فان فُهِم معناهُ كان فيهِ عيبٌ واحد وان لم يفهم اجتمع عليهِ حشف وسوء كيلة عيب الغرابة وعيب النفور مثل اظلخمَّ في قول ابي تمَّام

قد قلت لما اظلخمَّ الامر وانبعثت عسواء تالية غبسًا دهاريسا

اظلخمَّ بمعنى اسودَّ والعسواء الظلماء والدهاريس الدواهي وكل البيت غريب نافر ولا يخرج منهُ معنى جليل هذا مع ان صاحبهُ يقول

ومالكَ بالغريب يدٌ ولكن تعاطيك الغريبَ من الغريب

فهو ينهي عن المنكر ثم يرتكبهُ . ومن هذا القبيل لفظة العطبول في بيت المتنبي يخاطب حبيبهُ ويشير الى الشمس

مثلها انتِ لو حَنَتْني وأَسقَمتِ وزادتْ ابهاكِ العُطبول

وزاد عمر بن ابي ربيعة عليها ياء فزادها غلاظةً خصوصًا لانهُ جاء بها في معرض رثاء لفظمهُ

لامرأة المختار التي قتلها مصعب بن الزبير

ان من اعظم المصائب عندي قتلَ حوراءَ غادةٍ عيطبولِ
كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى الغانيات جرُّ الذيولِ

واغلظ منها قول المتنبي بدل فخرت

جَفَخَتْ وهم لا يجفخون بها بهم شيمٌ على الحسب الاغرِّ دلائلُ

سمع اعرابيٌّ ابا المكنون النحوي يجأر في دعاء الاستسقاء ويقول "اللهمَّ اسقنا غيثًا مريعًا مجلجلاً مستحقرًا سحًّا مسفوحًا دِراكًا لِكاكًا طبقًا غدقًا متفجرًا" فقال يا خليفة نوح هذا الطوفان وربِّ الكعبة دعني حتى آوي الى جبلٍ يعصمني من الماء. وسمعهُ يقول في يوم برد هذا يوم بلَّة عصبصب بارد هلوف فارتعد وقال هذا والله مما يزيدني بردًا. وقال ابو الاسود الدؤلي لابي عقمة ما حال ابنك قال اخذتهُ الحمَّى فطبختهُ طبخًا ورضختهُ رضخًا فتركتهُ ترخًا فطلَّق زوجتهُ فتزوَّجت بعدهُ وحظيت وبظيت. قال فما بظيت قال لهُ حرف من الغريب لم يبلغك بعد فقال يا ابن اخي كل حرفٍ لا يعرفهُ عمُّك فاستره كما تستر السنُّور فرثها. ولا يشفع للكلمة الغليظة كون معناها مفهومًا فهو قد يكون معروفًا عند القارىء وتبقى اللفظة مع ذلك خشنة مكروهة من ذلك قولهم اشمخرَّ واسبطرَّ وابذعرَّ والحيزبون والنقاخ والدردبيس والعطوس ومئات غيرها من الالفاظ الشائعة بمعانيها والمكروهة بالفاظها وما احسن ما قالهُ صفيّ الدين الحلّي

انما الحيزبون والدردبيسُ والطخا والنقاخ والعلطبيسُ
لغة تنفر المسامع منهـا حين تروى وتشمئزُّ النفوسُ
وقبيحٌ ان يُتبع النافر الوحـشيَّ منهـا ويترك المأنوسُ
انما هذه القلوب حديدٌ ورقيق الالفاظ مغناطيسُ

هذا وامثال الغريب النافر في ما انتهى الينا من اساطير السلف اكثر من ان يحصى ولا يستعملهُ الآن الاَّ من جفتهُ الرقَّة ونبَتْ عنهُ سلامة الذوق

قال آخر. ان كان الامر كما تقول وجب ان تطرح جميع الالفاظ التي هي من هذا القبيل وهي تقرب من ربع اوضاع اللغة او تزيد فلماذا وضعت اولاً ثمَّ ما هي الغاية من حفظها اليوم؟

قلت ان الالفاظ التي تسميها غريبة او نافرة او وحشية قد يعرض لها مواقع يعرفها اصحاب الذوق فتقبل على ما فيها من العيوب. يجيئها الذوق وينبوعنها الطبع في عبارة لا تليق بها او في سياق معنى لا يناسبها ثم يطرب لها هذا وذاك اذا وردت في المواقع التي تليق بها وهذا لا يقتصر على الالفاظ الوحشيَّة والغريبة بل يتخطَّاها الى جميع الفاظ اللغة. تستحسن في محلٍّ

وتستهجن في آخر ولاجل الاستئناس نورد بعض الشواهد في هذا الوجه :

قال بشر يصف مصرع الاسد واجاد

فخرَّ مضرَّجاً بدمٍ كأني هدمت لهُ بناءً مشمخرًّا

اذ لا بأس باللفظة الوحشية اذا استعملت في وصف قتال الوحوش فهي هناك تصادف محلها وتنزل منزلها وما اكرهها في مواقف التأدب ومقامات الكمال والسلاسة مثلما جاءت في كتاب لاحد المتفيهقين " لازال نائلكم مسبطرًّا وسعدكم مشمخرًّا " وفي غير لائقة في ما وردت من كلام الخطيب ابن نباتة " اقطرّ وبالها واشمخرّ نكالها " ومن ذلك لفظة البعير في قول المتنبي

يا طفلة الكفّ عبلة الساعدْ على البعير المقلد الواخد

زيدي اذى مهجتي ازدكِ هوًى فاجهلُ الناسِ عاشقٌ حاقد

فان البعير مع هذا المعنى الرقيق واللفظ الرشيق جعل عجز البيت الاول بعيرًا وقد وقعت موقعها في قول العباس بن مرداس

لقد عظم البعير بغير لبٍّ ولم يستغنِ بالعِظَم البعيرُ

واغلظ من كل ذلك قول المتنبي في احدى عيون قصائده

لا تجزني بضنًى في بعدها بقرٌ تجزي دموعيَ مسكوبًا بمسكوبِ

فان كنايتهُ بالبقر عن الغيد الحسان بذكّر القارئ بالعجول والثيران ومع ان الطبع قد مجّها في هذا البيت فهو يطرب لها في بيتهِ القائل

عليَّ نحتُ القوافي من معادنها وما عليَّ اذا لم تفهمِ البقرُ

ومنهُ ان بشارًا سمع قول كثيّر

الا انما ليلى عصا خيزرانةٍ اذا غمزوها بالاكفّ تلينُ

فقال قاتل الله ابا صخر يزعم انها عصا ثم يزعم انها خيزرانة ولو قال عصا مخّ او عصا زُبد لكان قد هجن مع ذكر العصا هلاَّ قال كما قلت :

ودعجاء المحاجر من معدٍّ كأنَّ حديثها ثمرُ الجنانِ

اذا قامت لحاجتها تثنَّت كأنَّ قوامها من خيزُرانِ

وليس لفظ العصا مكروهًا بنفسهِ وانما الموقع جعلها كذلك والنظر ما الطفها في قولهِ

اذا جاء موسى والقى العصا فقد بَطَلَ السحرُ والساحرُ

ومع ان بشارًا اظهر سلامة ذوقهِ في انتقاد بيت كثير نراهُ قد هجن اكثر منهُ في قولهِ

اغا عظم سليمى حبّتي قصب السكّر لاعظم الجمل
واذا ادنيت منها بصلاً غلب المسكُ على ريح البصل

وهذا من عجيب التناقض انك كرهت البصل في بيت بشارًا ولست تكرههُ في بيت ابن الوردي

اغا الورد من الشوك ولا ينبتُ النرجسُ الاّ من بصل

ومن هذا الباب قول اسماء بنت عبد الله ترثي زوجها

ابكي عليكَ باعروس الاعراس يا ثعلباً في بيتهِ للايناس

انظر ما اقبح الثعلب للدلالة على الوداعة وهو احسن من الغزال اذا جاء في محلهِ اللائق بهِ كقول محمود سامي باشا يصف كلب الصيد

يكاد يفوق البرق شدًّا اذا انبرت لهُ بنت ماء او تعرّض ثعلبُ

ومنهُ ايضاً قول ابن سناء الملك من قصيدة

صليني وهذا الحسن باقٍ فربما يُعزّل بيت الحسن منهُ ويُكنَسُ

فكتب اليهِ القاضي الفاضل يقول "القصيدة فائقة في حسنها بديعة في فنها الاّ ان بيت يعزّل ويكنَس اردتُ ان اكنسهُ منها لان لفظة الكنس غير لائقة بمكانها" وهذا نقد صحيح لان تصوّر وضع المِكنَسة على الوجه الجميل قبيحٌ ومكروه . وقد عبّر المتنبي عن هذا المعنى بالطف الكلام حيث قال

زوّدينا من حسن وجهك ما دا مَ فحسنُ الوجوه حالٌ تحولُ
وصلينا نصلكِ في هذه الدنيـــا فانّ المُقام فيها قليلُ

وقد المّ بهِ شكسبير شاعر الانكليز فهجّن مثل هُجنة ابن سناء الملك فقال بلسان فنيس تخاطب ادونيس : انتهز الفرصة ولا تدعها تُفلت . الحسن لا يجوز ان يضيّع فالازهار التي لا تجمع في اوقاتها تعفَنُ وتفنى في زمن قليل" فهو يؤاخذ على ذكر العفن في هذا المقام

وممّا يذكر في هذا الباب قول محمود سامي باشا

نلينُ وان كنا اشدّاء للهوى ونغضب من شروى نقيرٍ فنشتدُّ

اذ انّ تعليق الغضب على مقدار شروى نقير مخالف للرزانة والتعقّل ومع انّ هذا المعنى جليل نفيس فقد افسدتهُ اللفظة وانظر ما احلاهُ واجلّهُ في قول الآخر

نبارز ابطال الوغى فنبيدهم ونقتلنا في السلم لحظ الكواعبِ
وليست سهام الحرب تفني نفوسنا ولكن سهامٌ نوّقت بالحواجبِ

واحلى منهُ قول الآخر

نحن قومٌ تُذيبنا الاعين النجـــلُ على اننا نذيبُ الحديدا
وتراذا لدى الكريهة احرا ، رًا وفي السلم للحسان عبيدا

ومما يحمل ذكرهُ تحت هذا الفرع اقحام اللفظة في مكانٍ لا يصلح لها ولا تصلح لهُ وذلك ان كثيرين من المتسلقين على حرفة الادب تعلق في اذهانهم بعض الالفاظ التي يسمعونها من المتضلعين ويحسبونها فصيحة وجديرة بالاستعمال فيحتالون عليها في كلامهم وينصبون لها الاشراك ليستنبطوا لها محلاً متقلقلاً في عباراتهم ويقحموها اليهِ ولو كانت ليست منهُ ولا هو منها . من ذلك ما جرى بمسمعٍ مني وهو ان واعظاً قرأ رسالة الحجاج الى المهلَّب التي يختمها بقولهِ " والاَّ اشرعت اليكَ صدر الرمح " وجواب المهلب مختومًا بقولهِ " فان فعلتَ قلبت لك ظهر المجنّ " فاستحسن العبارتين وظن ان استعمالها في الصلاة يثبت لهُ طول الباع فوقف امام الجماعة مصليًا وقال بعد الحمد " اللهمَّ اغفر لنا ذنوبنا الكثيرة فاننا قد اشرعنا اليك صدر الرمح وقلبنا لك ظهر المجنّ فلا تعاملنا الاَّ برحمتك الخ " وهذا يشبه ما يحكى ان احدهم واسمهُ طنوس رأى خاتم رجل اسمهُ حسن منقوشًا عليهِ " ظني بالله حسن " فراقتهُ العبارة واحبَّ ان يقلدها فنقش على خاتمهِ "ظني بالله طنّوس" . وتبوئة الالفاظ مراتب لا تليق بها كثير في ادبيات العرب ونجد منها العشرات والمئات في المنقول عن فحول الشعراء واكابر الكتّاب على رسوخ قدمهم في الانشاء وعلو كعبهم في الادب ووقوع مثل من ذكرنا في هذه المناقد يحقق لنا ان الكمال صفة الهيَّة لا قِبَل للبشر بها (ستأتي البقية) فارس الخوري

الانتحار الديني في روسيا

اذاعت الجرائد الاوربية منذ بضع سنوات ان في جنوبي روسيا شيعة دينية تفرض على اعضائها الانتحار . فتوجه الاستاذ سيجورسكي مدرس علم الامراض العقلية والعصبية في كلية كيف بروسيا لتحقيق ما شاع وذاع عنها وكتب على اثر ذلك كتابًا عنوانهُ " وبأ الموت الاختياري والانتحار في مزارع ترنوفا " نقتطف منهُ ما يأتي لما فيهِ من الفكاهة والغرابة ودواعي الضحك والبكاء . قال

موطن هذه الشيعة وادي نهر دنيستر الخصيب في مزارع تحفّ بقرية ترنوفا التي تخص عائلة كوفالوف . وكانت هذه العائلة من المشقين . ولها مزرعة فيها بناء اتخذهُ المنشقون ملجأً يلجأ اليهِ كلُّ من كان منهم مريضًا او على سفر او عاجزًا او مضطهدًا منذ نحو قرن . وظاهر